

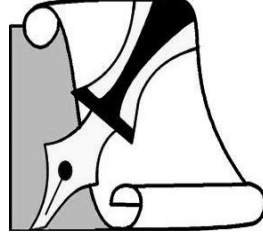


مركز البحوث للدراسات الفلسطينية والاستراتيجية

التقرير نمف الشهري

تحليل للتطورات السياسية
والأمنية في «إسرائيل»

www.bahethcenter.net
Email: baheth@bahethcenter.net
bahethcenter@hotmail.com



**مركز الدراسات
الفلسطينية والاستراتيجية**

تحليل نصف شهري للتطورات السياسية والأمنية في «إسرائيل»

أهداف المركز الرئيسية:

- ١ . إعادة فلسطين إلى موقعها الحقيقي كقضية مركزية للأمم.
- ٢ . الترويج للقيم الجهادية والنضالية في إطار استراتيجية تحرير فلسطين.
- ٣ . بناء علاقة متينة مع النخب والشخصيات المعنية بالقضية الفلسطينية.
- ٤ . إصدار دراسات وأبحاث وتقارير ذات بعد استراتيجي وتحليلي.

العلاقات الإسرائيلية الأذربيجانية: الحسابات الاستراتيجية

١ - مقدمة:

تعرف أذربيجان باسم آخر ألا وهو "أرض النار"، وعُرفت بهذا الإسم لأن حقول الغاز فيها تنفث النار من الأرض عند خروجها، إذ تمتلك البلاد إحتياطياً كبيراً من البترول والغاز. تبلغ مساحتها ٨٦٦٠٠ كيلومتراً مربعاً. تقع في الجزء الشرقي لمنطقة ما وراء جبال القوقاز، وتحد أذربيجان من الشمال جمهورية داغستان، ومن الشمال الغربي جمهورية جورجيا، ومن الجنوب الغربي جمهورية أرمينيا، ومن الجنوب جمهورية إيران الإسلامية، وحدودها المشتركة معها ٦١١ كيلو مترا، وكذلك الجمهورية التركية بحدود تمتد ١١ كيلو مترا. كما يحدها من الشرق سواحل بحر الخرز بطول يقدر بـ ٨٢٥ كيلو مترا.

وعاصمتها باكو ويبلغ تعداد سكانها ٨,٦٣٥,٠٠٠ نسمة، بحسب إحصاء نيسان ٢٠٠٨. وبعد إعلان استقلال أذربيجان في عام ١٩٩١ هاجر عشرات آلاف اليهود الأذربيجانيين إلى "إسرائيل"، وبقي منهم حوالي ٣٠ ألفاً في هذا البلد الذي يعتبر من البلدان العلمانية في العالم الإسلامي. وعلى الصعيد الثقافي، كانت أذربيجان وما زالت موطناً لجالية يهودية تتركز في باكو وشمال مدينة قباء، تعيش في البلاد فترة دامت أكثر من ٢,٠٠٠ عام. ويبلغ عدد سكان هذه الطائفة حالياً ما يتراوح بين ٢٠,٠٠٠ - ٢٥,٠٠٠ نسمة، على غرار السكان اليهود في إيران وتركيا. ويتمتع اليهود الأذربيجانيين بالأمن وحرية العبادة والثقافة، ويقوم الرئيس علييف كل عام بزيارة مؤسسات الجالية في قباء ويوجه لهم بقرقيات التهئة في الأعياد اليهودية، وبياناً تضامنياً في يوم ذكرى المحرقة.

إقليم ناخيتشيفان منفصل جغرافيا عن باقي أذربيجان. ويتطلب الوصول إليه المرور إما عبر أذربيجان الغربية التي هي مقاطعة إيرانية أو عبر أرمينيا. ويتيح إقليم ناخيتشيفان لأذربيجان الإتصال الجغرافي مع تركيا بنافاذة عرضها ٨ كيلومترات فقط. ومن أشهر أبناء الإقليم حيدر علييف أول رئيس لأذربيجان وابنه إلهام علييف.

تعتبر أذربيجان دولة ذات نظام سلطوي استبدادي يحاول تحديد وتقييد سيرورة التحديث، من جهة، ومنع أي إصلاحات ديمقراطية، من جهة أخرى، فضلاً عن تدهور حقوق الإنسان فيها. وتتميز العلاقات الأذرية مع تركيا وإيران بمفارقة كبيرة تؤكد تفوق الأبعاد القومية على الانتماء المذهبي. فمن جهة تربط أذربيجان علاقات متينة مع تركيا، فتركيا ترى في الشعب الأذري امتداداً للقومية التركية من الناحية الإثنية، وذلك على الرغم من انتماء الشعب الأذري للمذهب الشيعي الإثني عشري، فيما تركيا هي مسلمة سنية. وتؤثر هذه المنظومة المتمثلة في علاقات أذربيجان مع تركيا وإيران على مجمل علاقة البلد مع "إسرائيل"، وعلى علاقة الأخيرة مع أذربيجان. من ناحية أخرى دفعت الولايات المتحدة كلاً من أذربيجان والكيان الصهيوني نحو تطوير العلاقات فيما بينهما في التسعينيات، وكان التصور المرسوم أن يتم تشكيل تحالف رباعي يضم "إسرائيل" وتركيا وأذربيجان وجورجيا أمام المحور الذي يضم روسيا وسوريا وإيران وأرمينيا، إلا أن التحولات الجيوسياسية التي جرت في السنوات الأخيرة بعثت هذا التصور، وجعلت عملية بلورته معقدة جداً. ففي الأعوام الأخيرة توترت العلاقات التركية الإسرائيلية، كما أن الحرب على جورجيا واستعمال الأخيرة سلاحاً إسرائيلياً ضد القوات الروسية التي اجتاحت جورجيا، وضع إسرائيل في موقعٍ مُحرجٍ مع روسيا، وشكل التوتر بين أذربيجان وتركيا بسبب تقارب الأخيرة مع أرمينيا ضربة أخرى لهذا المحور، وفي النهاية فإن "إسرائيل" ترى في علاقتها مع روسيا علاقةً استراتيجية، وليست علاقة عدا.

في العقود الأولى من تاريخ الكيان الغاصب، طور نظرية "الدوائر الثلاث" في بناء تحالفاته الإقليمية. وتعني هذه النظرية نسج علاقات ذات طابع استراتيجي مع الدول الإقليمية غير العربية التي تحيط بـ"دول الطوق" التي كانت مُعادية له بهدف تطويقها وإشغالها بجبهات خلفية. وكانت إثيوبيا وتركيا وإيران الشاه أبرز ثلاث دول تحالف معها الكيان في مواجهة كل من مصر الناصرية وسوريا والعراق. لكن تبدلت الأحوال مع الدول الثلاث، ومع ذلك لم يتخل العدو عن نظريته التي يسعى إلى تطبيقها حالياً مع أطراف جديدة، على رأسها أذربيجان والأكراد. فالتحالف مع هاتين الجهتين من شأنه أن يقدم للعدو الصهيوني منافع استراتيجية واقتصادية وأمنية على أكثر من صعيد. وهناك أربعة عوامل لعبت دوراً مهماً في بلورة التوجّهات الإسرائيلية نحو تعزيز علاقاتها بأذربيجان هي:

- أولاً: المحور الإيراني، حيث شكّلت أذربيجان بالنسبة لـ "إسرائيل" ساحةً خلفيةً تنطلق منها في حربها ضد إيران ومشروعها النووي على الأخص.
- ثانياً: البحث عن مصادر بديلة للطاقة، وذلك يتعلق بأمن الطاقة القومي، حيث يشكل النفط الأذري ٤٠% من واردات النفط إلى "إسرائيل".
- ثالثاً: ترى إسرائيل في أذربيجان مركباً مهماً من مركّبات إعادة إحياء سياسات الأطراف التي تعتبرها جزءاً من منظومتها الاستراتيجية العامة في السنوات الأخيرة.
- رابعاً: ترى "إسرائيل" في علاقتها مع أذربيجان أهمية رمزيةً إلى جانب الأهمية الاستراتيجية، فأذربيجان دولة مسلمة وشيعية مثل إيران وعضو في منظمة مؤتمر الدول الإسلامية.
- الجدير بالذكر أن العدو الصهيوني يسعى منذ انهيار الاتحاد السوفييتي في تسعينيات القرن الماضي إلى إقامة علاقات تجارية واقتصادية وعسكرية وأمنية مع الدول الإسلامية المنبثقة عنه مثل أوزبكستان وأذربيجان وكازاخستان، إلى جانب تطوير علاقاته مع بلدان مثل جورجيا، كسوق لخبراتها وأسلحتها وكدول مرشحة لاستخدام أراضيها وأجوائها، بسبب مساحاتها الشاسعة لتدريبات سلاح الجو الإسرائيلي. ويحاول كيان العدو استغلال حالة التطور المتواصل لهذه الدول لبيعها خبرات عسكرية وأسلحة متطورة، بهدف حلّ مشكلة كساد الأسلحة الإسرائيلية، والعمل على إيجاد أسواق بديلة لمنتجاتها المدنية والزراعية، بدلاً من الأسواق الأوروبية ودول الاتحاد الأوروبي التي تهدّد بفرض مقاطعة على البضائع الإسرائيلية المصنعة في المستوطنات وداخل حدود العام ٦٧، بالإضافة إلى السعي للحصول على تأييد تلك الدول والتعاون معها في المحافل الدولية، كالأمم المتحدة.

٢ - الإرهافات الأولى:

يشير موقع "ISRAEL DEFENSE" إلى أن النائب عن حزب العمل في التسعينيات، الجنرال إفرايم سنيه، كان قد اقترح على رئيس الوزراء الصهيوني في حينه، إسحاق رابين، أن يعرض على أذربيجان تطوير العلاقات مع تل أبيب، فوافق رابين وكلفه بالمهمة، ففاق نجاح مهمته تلك كل التوقعات، الأمر الذي تجلّى بتوقيع صفقات سلاح بمئات ملايين الدولارات مع أذربيجان، منها اتفاقية بشأن مشروع مشترك لصنع طائرات صغيرة من دون طيار، والتزوّد بوسائل اتصال، وتطوير بعض الأسلحة، وتدريب طيارين في سلاح الجو الأذري. وتطوّرت الأمور فيما بعد بحيث تتبادل الدولتان حالياً المعلومات الاستخبارية، وتحرصان على تعاون أمني وثيق فيما بينهما، ممّا يتيح لكيان العدو متّسعاً من المجال للمناورة الاستراتيجية في مناطق حساسة لاسيّما إزاء الجمهورية الإسلامية الإيرانية العدو الحقيقي والوجودي لهذا الكيان.

في السياق نفسه، أشار تقرير سابق لصحيفة "يديعوت أحرونوت" الإسرائيلية في شهر حزيران العام الماضي إلى عمق العلاقات بين أذربيجان و"إسرائيل" عندما كشف أن القنصل السياسي لسفارة أذربيجان، محمد طاليبوف، أدار بنفسه عدّة جلسات في المؤتمر الأخير للوبي اليهودي في الولايات المتحدة "ايباك". ولفت موقع الصحيفة إلى العلاقات التجارية والاقتصادية الوثيقة بين البلدين التي تطال أيضاً التعاون في مجالات الزراعة والسياحة والتكنولوجيا والأمن الخ ...

وكان تقرير سابق نشرته صحيفة "هآرتس" في شهر آذار العام ٢٠١٣، وحُصِّص للتعاون الاستراتيجي والعسكري بين العدو وأذربيجان، قد اعتبر الأخيرة بأنّها تمثل "البوابة الخلفيّة والسريّة للوصول إلى طهران". وجاء في مقال نشرته صحيفة "جيروزاليم بوست" أنه "لا توجد دولة في الفضاء الأوراسي لديها علاقات ودّيّة ووثيقة مع إسرائيل مثل جمهورية أذربيجان". بالتالي فإنّ أذربيجان بموقعها وسياستها تشكّل الفك الثاني للكماشة الإسرائيلية لمحاصرة إيران، ولا سيّما أن مسؤولين إسرائيليين صرّحوا في أكثر من مناسبة بواقعيّة التعاون الجديّ والفعلي بين "إسرائيل" وما يسمّى "دول الاعتدال العربي" ضد إيران مع الإشارة في أكثر من مناسبة إلى احتمالات استخدام الطيران الإسرائيلي للأجواء السعودية في طريقه إلى ضرب المنشآت النووية الإيرانية سواء كواقع أو كتهديد. وتستغلّ "إسرائيل" مشاكل أذربيجان الحدودية مع جيرانها سواء في أرمينيا أم في إيران نفسها، حيث نقلت صحيفة "هآرتس" الإسرائيلية تصريحات للمستشار الإعلامي لرئيس أذربيجان،

فؤاد أحنوف، بأن المرشد الإيراني، سماحة السيد علي خامنئي، وهو من أصول آذارية، مستاء جداً من التعاون الوثيق بين الكيان الغاصب وأذربيجان، معتبراً أن "إسرائيل" لا تشكّل في نظر أذربيجان مشكلة، خاصة وأن نحو مئة ألف يهودي هاجروا من أذربيجان إلى الكيان الصهيوني وقيمون علاقات تجارية واقتصادية معها، بينما تشكّل إيران بالنسبة لهم مشكلة. وقد مؤلت هذه الجمهورية السوفياتية السابقة الواقعة في منطقة القوقاز، في السنوات الأخيرة بناء كنيسين يهوديين جديدين في باكو. ولفت زعيم طائفة اليهود الأشكيناز في باكو غينادي زلمانوفيتش إلى أنه "لا وجود قطعاً لأي إشارات مُعادية للسامية في أذربيجان". وبالقرب من مدخل الكنيس تعلق صورة الهام علييف رئيس أذربيجان الذي يتعرّض للانتقاد في الغرب بسبب انتهاكات حقوق الانسان في هذا البلد، لكن يتمّ التودّد إليه للثروات الهائلة من النفط والغاز التي يسيطر عليها، فأذربيجان تصدر النفط إلى "إسرائيل" وتتزوّد منها بالأسلحة في إطار مبادلات تجارية بلغ حجمها العام الماضي ١,٨ مليار دولار (١,٢ مليار يورو) في الإجمال. وتحتاج أذربيجان للأسلحة الإسرائيلية خصوصاً بسبب نزاعها مع أرمينيا بشأن إقليم ناغورني قره باخ، وهو المنطقة الانفصالية المأهولة بغالبية أرمينية والتي ضمت إلى أذربيجان خلال الحقبة السوفياتية. وقد أعلن إقليم ناغورني قره باخ عن استقلاله غير المعترف به من المجتمع الدولي، بعد حربٍ داميةٍ بين عامي ١٩٨٨ و ١٩٩٤، لكن باكو ويريفان لم تتوصّلا إلى اتفاق حول وضع هذا الإقليم الواقع في منطقة استراتيجية بين إيران وروسيا وتركيا الحليفة لأذربيجان. وأفادت برقية دبلوماسية للسفارة الأميركية، نشرها موقع ويكيليكس، "أن الصناعة العسكرية الإسرائيلية العالمية المستوى تناسب تماماً الاحتياجات الأساسية لأذربيجان في المجال الدفاعي، (لاسيما) أنّها بقيت بعيدة عن تلبيتها مع الولايات المتحدة وأوروبا وروسيا". وأضافت هذه البرقية أن "إسرائيل" وأذربيجان "تواجهان صعوبات جيوسياسية متشابهة ويعتبر كلاهما إيران بمثابة تهديدٍ لأمنه".

رئيس الكنيست الإسرائيلي يولي أدلشتين كشف من ناحيته في حديثٍ مع breakingisraelnews عن نفوذ إسرائيل المتزايد في أذربيجان وعلاقتها الودية مع هذه الدولة الإسلامية، وأكد أدلشتين أن "أذربيجان تعتبر الثانية في العالم بعد إسرائيل في مجال التصديّ للأشطة المناوئة لليهود وتسمح بأبناء اليهود أن يزاولوا طقوسهم الدينية بكل حرية".

وصرّح رئيس الكنيست الإسرائيلي لمراسل breakingisraelnews: "كما تعلمون أن الجالية اليهودية الأذربيجانية كانت أهم فئة بين يهود الإتحاد السوفيتي توجهت عام ١٩٨٨ إلى إسرائيل حيث أن إسرائيل حالياً تحتضن من يهود الأذربيجان ما يزيد على ١٠٠ ألف نسمة". وأضاف قائلاً: "إننا لا بد لنا من أن نرمي بأنظارنا إلى ما وراء حصارنا العربي فمن هذا المنطلق كنا ولانزال نسعى وراء تكوين إتحاد من الدول الشرق الأوسطية غير العربية". واعتبر أدلشتين القضايا التالية ضمن أهم الأهداف الرئيسية لإسرائيل والتي تسعى لتحقيقها في إطار إقامة علاقات ودّية مع جمهورية أذربيجان:

- تقديم ضمان لوجيستي لإسرائيل خارج الحدود العربية.

- توفير الأمن اللازم للجاليات اليهودية في القوقاز.

- استغلال طاقات أذربيجان بما فيها مكانتها الجيوسياسية على شواطئ بحر قزوين إلى جانب تمتعها بالمصادر النفطية والغازية.

- رصد روسيا وتوجيه تهديدات فاعلة نحو الأنظمة المناوئة مثل إيران. وأكد رئيس الكنيست على استمرار إسرائيل في استثماراتها ونشر نفوذها في المؤسسات والجمعيات غير الحكومية ووكالات الأنباء والدوريات والصحف وسائر وسائل الإعلام الأذربيجانية، موضحاً أن الكنيست يتمكّن من خلال هذه المنصات أن يرسل رسالته إلى المسلمين. وأوضح: "بفضل النوايا الحسنة التي أبدتها علييف وعقيلته والسلطة الحاكمة في أذربيجان فإننا حالياً نستأثر بالمشاريع الاقتصادية الأساسية في أذربيجان ونملك حصة الأسد في قطاع تنقيب النفط واستخراجه. كما أنني قد أودعت اليوم جلّ الأموال الحكومية والخاصة الأذربيجانية في مختلف المصارف الإسرائيلية وهذه الثقة المتبادلة قد لعبت دوراً إيجابياً في المزيد من التقارب بين السلطات الأذربيجانية والإسرائيلية.

ونوه أدلشتين إلى تواجد "إسرائيل" القوي في هذه المنطقة وذلك في سبيل تحقيق أهدافها السامية وتثبيت مكانتها فيها قائلاً: "إن التعاون العسكري والأمني الواسع بين باكو - تل أبيب سيؤدي إلى إبعاد التهديدات الوافدة لكلتي الدولتين ومن دواعي السرور أننا نستطيع أن نقول حالياً أن إسرائيل قد عثرت في منطقة آسيا

الوسطى على حليف متحمس من طراز أوزبكستان كما أنها قد رفعت مستوى علاقاتها العسكرية والأمنية مع أذربيجان إلى أبعد الحدود المتاحة فما كنتم تتوقعون أن يحصل أفضل من هذا الأمر؟! واختمت أدلشتين حديثه قائلاً: "إن مجموعة من الجيران الخطرة قد حولت إسرائيل وأذربيجان إلى حليفتين طبيعيتين الواحدة للأخرى".

الجدير بالذكر أن أذربيجان لم تفتح حتى الآن سفارة لها في "إسرائيل" لئلا تغضب شركاءها المسلمين داخل منظمة المؤتمر الإسلامي، فيما للدولة العبرية سفارة في باكو. وقد رأى الهان شايونغلو، مدير مركز الأبحاث السياسية "اطلس" في باكو، "أن إسرائيل بحاجة لعلاقات ودية مع دول إسلامية"، مؤكداً أن الدولة العبرية تدعم أذربيجان في نزاعها في ناغورني قره باخ. وأضاف "خلافاً لما جرى في أوروبا لم تحدث أي تصفية لليهود في تاريخ أذربيجان. وقد دعمت إسرائيل على الدوام وحدة أراضي أذربيجان".

الإسلاميون في أذربيجان، من جهتهم، ينتقدون السلطات التي يأخذون عليها بأنها أغلقت مساجد عدّة وحظرت ارتداء الحجاب في المدارس بهدف مكافحة الأصولية الدينية المتشددة. ويطالب بعض المسلمين بإغلاق السفارة الإسرائيلية في باكو تضامناً مع القضية الفلسطينية. ورأى عاكف جيدارلي من الحزب الإسلامي المحظور في أذربيجان "أن علاقة الصداقة التي تقيمها أذربيجان مع بلد كهذا (إسرائيل) أمر غير مقبول".

باختصار تولى "إسرائيل" أهمية استراتيجية واضحة للعلاقة مع دولة أذربيجان وذلك لحسابات دقيقة من أبرزها: جوارها لإيران، ولكونها من الدول الغنية بالطاقة، وبسبب الدور الإسرائيلي الفاعل لناحية بيعها الأسلحة الإسرائيلية وتطوير صناعاتها الأمنية والعسكرية. ومن أبرز ما يدل على قوة العلاقات بين الجانبين، حقيقة أن الشركات الأمنية الإسرائيلية وحدها تستحوذ على ٢٠% من مساحة المعرض الأمني الكبير الذي يقام سنوياً في باكو. وقد وصف الرئيس الأذربيجاني، في أيار من عام ٢٠٠٨، العلاقات بين باكو وتل أبيب بأنها "جبل جليد ٩٠% منه متوارٍ تحت الماء بعيداً عن أعين الدخلاء" على حدّ قوله.

٣ - العمل الدبلوماسي والزيارات المتبادلة:

استمد رئيس الحكومة الإسرائيلية بنيامين نتنياهو الجرأة من زيارته السياسية والاقتصادية في أواخر العام ٢٠١٦ لكل من أذربيجان وكازاخستان على الحدود مع إيران، ليُهدّد طهران بالويل إن تحرّشت بالدولة العبرية. ولم يكتفِ نتنياهو، الذي يُسجّل زيارته هاتين في خانة التأكيد على عدم وجود "إسرائيل" في عزلةٍ سياسية، بذلك، بل أعلن نية حكومته المطالبة بمقعدٍ لها في مجلس الأمن الدولي في العام ٢٠١٩. يذكر أن رئيس أذربيجان إلهام علييف أعلن أن حكومته استوردت من إسرائيل في السنوات الأخيرة معدات عسكرية بقيمة تصل إلى خمسة مليارات دولار. ويحاول نتنياهو الذي تواجه حكومته مصاعب جمّة في علاقاتها مع الأسرة الدولية عموماً، والاتحاد الأوروبي خصوصاً، بسبب معارضته لأيّ تقدّم في العملية السلمية مع الفلسطينيين وتوسيعه الاستيطان، إثبات أن ذلك لا يُعرقّل أبداً علاقات "إسرائيل" العربية والإسلامية.

وكشف في زيارته لكازاخستان أنه طلب تأييد رئيسها نور سلطان نزارباييف لتولي "إسرائيل" عضوية مجلس الأمن الدولي في العام ٢٠١٩. وقال إن "إسرائيل" مثلما سبق وأيدت تنافس كازاخستان على مقعد في مجلس الأمن، فإن الرئيس نزارباييف سيؤيّد ترشيح إسرائيل في العام ٢٠١٩. وإذا حدث ذلك، وأنا أوّمن أنه يمكن أن يحدث، فإن معنى ذلك تغيير حقيقي في موقف الأمم المتحدة من إسرائيل". وشدّد نتنياهو على أن "تغييرات مثيرة تحدث في علاقات إسرائيل مع العالم العربي، رغم أنها مستترة عن الأعين"، وأن العلاقات مع كازاخستان تشكّل نموذجاً يُحتذى به للعلاقة بين "إسرائيل" ودولة مسلمة. وقال: "لقد رأيتم اليوم زعيماً دولة مسلمة ودولة يهودية يتصافحان". وتعتبر إشارة نتنياهو إلى عضوية مجلس الأمن الدولي استمراراً مباشراً للخطاب الذي ألقاه في الجمعية العمومية للأمم المتحدة في أيلول الماضي حين قال أن "إسرائيل" مستقبلاً وريثاً في الأمم المتحدة. وبالتأكيد يفاجئكم أن تسمعوا هذا الكلام مني، بعدما كنت أُكيل الاتهامات عاماً بعد عام للأمم المتحدة، وعن حق". وبحسب مصدر إسرائيلي رفيع المستوى، طلب نتنياهو من الرئيس الكازخي نزارباييف أن ينقل للرئيس الإيراني حسن روحاني رسالة مفادها أن النظام الإيراني "يضع نفسه في خطرٍ كبير"، بمواصلته تهديد إسرائيل بالدمار. وقالت مصادر إسرائيلية أن هذه الرسالة تأتي في نطاق التصعيد التدريجي في تصريحات نتنياهو ضد إيران منذ فوز دونالد ترامب في الانتخابات الرئاسية الأميركية. ومعلوم

أن روحاني سيزور كازاخستان قريباً، ولذلك سأل نزارباييف نتتياهو إن كان يريد منه إيصال رسالة له. وقال نتتياهو لنزارباييف في هذا السياق إن "إسرائيل ليست أرنباً. إنها نمر. وإسرائيل ليست دولة صغيرة عاجزة. والإيرانيون لا يعرفون مع من يتعاملون، وإيران تضع نفسها في خطرٍ كبيرٍ". وطلب نتتياهو من نزارباييف أن يوضح لروحاني أنه إذا غيرت إيران تعاملها مع "إسرائيل"، فإن "إسرائيل" أيضاً ستغير تعاملها مع إيران. وكان نتتياهو كرّر في الأسابيع الماضية مواقفه الحادة ضد إيران حيث قال في مقابلة مع شبكة "سي بي اس" إنه في لقائه الأول مع ترامب بعد تولّيه الحكم ينوي أن يطلب منه إلغاء الاتفاق النووي مع إيران. كما أنه في كلمته أمام منتدى "سابان" في واشنطن قال إنه ينوي الحديث مع ترامب في أمر "الصفقة السيئة مع إيران" التي بعد إبرامها الاتفاق "صارت أشد عدوانية". وحينها، ورداً على سؤال بشأن احتمالات الضربة العسكرية الإسرائيلية لإيران، قال: "عندما أقول إننا ملتزمون بمنع إيران من امتلاك سلاح نووي، فإنني أقصد ذلك". ومن اللافت أن أقوال نتتياهو الوقحة هذه تأتي في أول زيارة يقوم بها رئيس حكومة إسرائيلي لكازاخستان. وقد وقّع نتتياهو مع نزارباييف على اتفاقيات تعاون عدة في مجالات تكنولوجياية وأمنية وزراعية مختلفة، وفي مجال الطيران المدني. وقال نتتياهو إنه "شرف لي أن أكون أول رئيس حكومة إسرائيلي يزور كازاخستان. وبوسعنا التعاون لتعزيز الاقتصاد ودفعه إلى الأمام. نحن نريد أن نكون هنا، وأن نكون شركاء لكم". وبعدما أشار إلى تسامح كازاخستان مع يهودها واعتبر ذلك نموذجاً للتعايش بين اليهود والمسلمين، قال إنه «تعمل في كازاخستان ٢٠٠ شركة إسرائيلية، وأنا أفهم أنه أبرمت صفقات عدة. وهذا هو الأمر الأهم أن ندفع الأمور للتقدم بسرعة لأن الأمور تتراكم بسرعة في العالم بأسره، لذلك أريد رحلات جوية مباشرة ومنطقة تجارة حرة مع كازاخستان وأربع دول أخرى". وتفاخر نتتياهو بإنجازات الشركات التكنولوجية الإسرائيلية، وأن الدولة العبرية دولة تجديد، وهو يريد إشراك كازاخستان في هذه الإنجازات. وكان نتتياهو زار أذربيجان قبل كازاخستان حيث أعلن هناك أن "إسرائيل" تفحص سبل الارتباط بأنبوب الغاز الأذري على أمل ضمان استقرار الطاقة في العقود المقبلة. وشدد نتتياهو على أن "إسرائيل" تركز في علاقاتها مع أذربيجان ليس فقط على الجوانب الاقتصادية وإنما "توثق أيضاً علاقات أمنية هامة جداً لدولة إسرائيل". وقال نتتياهو أن "نموذج دولة مسلمة شيعية تتبنّى بدفء الطائفة اليهودية ودولة إسرائيل تثبت أن بالوسع التعامل بشكل مغاير، وهذا يمثل في منطقتنا رسالة هامة للمنطقة والعالم". وأضاف أن "جذر الانقلاب هو التغيير في مكانة إسرائيل بين الأمم وهذا

الميل يزداد توسعاً. وهذه أيام نعزز فيها العلاقات وننتج فيها تظهيراً لأمر تحدثت وهي العلاقات التي تتوثق بيننا وبين العالم الإسلامي". وأكد نتتياهو أن إحدى الغايات الأساسية لزيارة أذربيجان وكازاخستان "النية لتغيير وتحطيم الأغلبية التلقائية ضد إسرائيل في المحافل الدولية. أنا أريد إحداث انقلاب في العالم الإسلامي. العالم العربي يتأثر، كما قال لي زعماء عرب نشأوا على ثقافة الدعاية ضد إسرائيل". وكان الرئيس الأذري إلهام علييف قد استقبل نتتياهو بإعلانه أن بلاده وقعت على عقود بعيدة المدى لشراء أسلحة وأعتدة أمنية من "إسرائيل" بحوالي خمسة مليارات دولار واعترف نتتياهو بالعلاقات الأمنية المميزة مع أذربيجان معلناً أنها "جوهرية وبالغة الأهمية لإسرائيل".

٤ - حيثيات التعاون الاستراتيجي:

تظلّ علاقات أذربيجان بتل أبيب من أكثر النقاط إثارة للخلاف بين طهران وباكو. وكانت العلاقات الثنائية بين تل أبيب وباكو قد بدأت تتوثق، كما ذكرنا، منذ عام ١٩٩١ حين سعت "إسرائيل" إلى تعزيز علاقاتها مع أذربيجان خاصةً بعد تدهور علاقاتها مع انقرة في عام ٢٠٠٩ إثر حادثة السفينة مرمرة. وتمثل تل أبيب وكيلاً لمصالح الولايات المتحدة في أذربيجان وقناة وسيطة بين باكو وواشنطن وتسعى من خلال تواجدها في أذربيجان إلى التضييق على طهران من خلال تشكيل جماعات ضغط في باكو لزعزعة مصالح إيران الاقتصادية والسياسية والأمنية، بالإضافة إلى تأمين مصدر لإمدادها بالنفط على المدى الطويل.

منذ استقلال أذربيجان بدأ التعاون التجاري في النمو حتى أصبحت "إسرائيل" الشريك التجاري السادس لباكو. وفي إطار تعزيز التعاون التجاري أسس الطرفان العديد من المنتديات التجارية. ويربط تل أبيب بباكو تعاون ممتد في قطاع الطاقة فبحلول ٢٠٠٩ كانت أذربيجان تُصدّر لإسرائيل ٢٥-٣٠ بالمائة من حاجتها النفطية ثم لترتفع إلى ٤٠ بالمائة. كما وينشط عدد من الشركات الإسرائيلية في قطاع الطاقة الأذري.

أما على صعيد التعاون العسكري والأمني، فكانت "إسرائيل" ومنذ تسعينيات القرن العشرين مصدر السلاح الرئيس إلى باكو التي حصلت على أسلحة وتقنيات عسكرية متقدمة في ظل الحظر الذي فرضته

الولايات المتحدة على بيع السلاح لباكو بين ١٩٩٣ و ٢٠٠٢ خشية تعزيز محاولات أذربيجان تحرير أراضيها بالقوة. وفي إطار إتفاقيات التعاون الأمني تُدرب تل أبيب أفراداً من أجهزة الأمن والاستخبارات الأذرية. ويؤدي هذا التوثيق المستمر للتعاون إلى قلق طهران من تزايد النفوذ الإسرائيلي على حدودها الشمالية. ففي عام ٢٠٠٤ أرسلت إيران وفدا رفيع المستوى من القادة العسكريين لباكو لإقناع القيادة السياسية بوقف التعاون العسكري وعدم استقبال مسؤولين عسكريين واستخباراتيين من تل أبيب. وفي ٢٠١٢ تزامناً مع تزايد الزيارات وإبرام صفقات التسليح وزيادة التعاون التجاري بين الطرفين، اتهمت طهران باكو بإيواء شبكات للموساد وعملاء إسرائيليين على ضوء اغتيال عدد من العلماء النوويين الإيرانيين. وفي تشرين الأول ٢٠١٢ اعتقلت باكو ٢٢ فرداً اتهمتهم بتلقي تدريبات على يد الاستخبارات الإيرانية لشنّ هجمات على منشآت إسرائيلية وأميركية. وجاءت حملة الاعتقالات هذه بعد زيارة للرئيس السابق محمود أحمدي نجاد في الشهر ذاته لباكو وصف فيها العلاقات الثنائية بأنها "أخوية وعميقة". في المقابل تحاول باكو باستمرار الحفاظ على نوع من التوازن بين علاقاتها بالجانب الإيراني وعلاقاتها بتل أبيب. وعلى الأثر أرسلت باكو -في محاولة لاسترضاء طهران- وفداً رفيع المستوى بقيادة رامز مهدييف سكرتير مجلس الأمن القومي الأذري ليلتقي بالرئيس السابق محمود أحمدي نجاد وعددًا من المسؤولين الإيرانيين. وكان الهدف من الزيارة إرسال رسالة مفادها أن باكو تتمسك بعلاقاتها مع طهران وأنها لن تسمح بتحويل أراضيها إلى قاعدة لشنّ أيّة عملية عسكرية ضدها في المستقبل.

تعدّ أرمينيا وأذربيجان، ساحتين خلفيتين لصراع استخباراتي سري بين إيران و"إسرائيل"، لم يكشف منه حتى الآن سوى القليل، مقارنة بالساحة السورية، التي دخل فيها الصراع بين الجانبين مرحلة أكثر وضوحاً، حيث تعلن "إسرائيل" صراحة أنها وراء ضرب أهداف إيرانية هناك، بزعم وقوف طهران إلى جوار مقاومة "حزب الله"، ووراء محاولات تأسيس جبهة عسكرية جديدة بالقسم السوري من الجولان المحتل.

وتتحدّث تقارير عن قيام طائرات تابعة للجيش الإسرائيلي، بالتجسس على الحدود الإيرانية مع أذربيجان، وتفيد بأن طائرات من دون طيار تابعة للجيش الإسرائيلي، نفذت مرات عديدة عمليات مراقبة للحدود الإيرانية، أثناء الاشتباكات التي دارت بين أذربيجان وأرمينيا في إقليم كاراباخ. طبقاً لهذه التقارير، فقد استخدم الجيش

الإسرائيلي قاعدة عسكرية للجيش الأذري، وقام بالمراقبة والاستطلاع على الحدود الإيرانية. ويرى مراقبون، أن تلك الرواية ربما تخفي وراءها معطيات أخرى، من بينها أن الاستخبارات الإسرائيلية تمتلك قاعدة ثابتة في أذربيجان، على مقربة من الحدود الإيرانية، حيث تدير "إسرائيل" منظومة تجسس عبر طائرات من دون طيار ووسائل أخرى، تستهدف الدولة الإسلامية الإيرانية. وقد كشف بعض التقارير مؤخراً، النقاب عن أن الأراضي الأذرية، تستضيف قاعدة كبرى تتبع لجهاز الاستخبارات والعمليات الخاصة الصهيوني "الموساد"، وأن هذا الأخير يستغل تواجده هناك عند المناطق الحدودية مع إيران لتعقب ما يدور بداخلها، وأن العديد من الإتهامات صدرت من داخل طهران ضد جارتها الأذرية، بأنها تمكن عملاء الموساد من استخدام أراضيها للتجسس عليها، فضلاً عن أجهزة المراقبة المتطورة المنصوبة على الحدود. وذهبت مصادر أجنبية إلى أن عمليات مشتركة بين الجانبين قد أسفرت عن إحباط عملية مزعومة خطّطت لها إيران وحزب الله لاستهداف السفارة الإسرائيلية في باكو عام ٢٠٠٩، وأن التعاون في مجال مكافحة "الإرهاب" يعتبر من المجالات الخصبة للغاية في ملف العلاقات بين البلدين، فضلاً عن العلاقات التجارية، التي تشكّل محوراً أساسياً لهذه العلاقة، حيث يبلغ التبادل التجاري مليارات الدولارات سنوياً، كما يعتبر النفط الأذري وقوداً يتدفّق في شريان اقتصاد الدولة العبرية بشكلٍ لا يتوقف.

من ناحيةٍ أخرى تكتسي العلاقات الإسرائيلية - الأذرية طابعاً سرياً إلى حدٍ كبير، مقارنةً بتلك التي تجمع بين إيران وأرمينيا، على الرغم من أن ثمة الكثير من الأمور غير المعلومة في الحالة الأخيرة أيضاً، بيد أنه من الواضح أن ثمة تأييداً إيرانياً لمواقف حكومة "يريفان"، ومن المحتمل أن الحديث يجري عن توازن قوى رداً على علاقات تل أبيب مع باكو. وتمتلك الأخيرتان منظومة تعاون عسكري واستخباراتي واسعة، وضعت أذربيجان على رأس حلفاء الدولة العبرية في تلك المنطقة الحساسة، ونظرت تل أبيب إلى باكو من منظور أنها تشكّل حليفاً إستراتيجياً، وقاعدة للاستخبارات الإسرائيلية تعتبر موطئ قدم على مقربة من حدود إيران الشمالية. وتتعاون "إسرائيل" وأذربيجان، طبقاً لما هو مُعلن في المجالات العسكرية والاستخباراتية، وأبرمتا صفقات سلاح كبرى في السنوات الأخيرة، لدرجة جعلت من الجيش الأذري عميلاً رئيساً لشركات الصناعات العسكرية الإسرائيلية. وقد نشأت بين "إسرائيل" وأذربيجان، علاقات عميقة واستراتيجية خاصة منذ اندلاع

الصراع بين أذربيجان وأرمينيا بشأن كاراباخ. هذا التحالف منح "إسرائيل" المزيد من الزخم والنفوذ في تلك المنطقة، حيث أُضيف إلى تواجدها القوي في جورجيا، وبالتالي وجدت طهران في هذا التواجد سبباً للقلق، وسعت لتطويع علاقاتها مع يريفان. وفي مقابل تمكين أذربيجان "إسرائيل" من استخدام أراضيها لإرسال طائرات من دون طيار لتنفيذ مهام تجسس داخل الأراضي والأجواء الإيرانية، سعت إيران لإحداث توازن ومواجهة التواجد الإسرائيلي في أذربيجان وجورجيا، واتّجهت نحو تأييد موقف أرمينيا في صراعها بشأن إقليم كاراباخ، فيما يبدو أن هذا التعاون أثمر عن نتائج، حيث رفضت يريفان عرضاً إسرائيلياً لتزويدها بالسلاح، وقدمت احتجاجاً شديداً للهجة لتل أبيب، على خلفية كشف تفاصيل استهداف مقاتلين أرمن بواسطة طائرات انتحارية إسرائيلية من دون طيار. ويتحدّث مراقبون، عن تعاون استخباراتي بين كل من إيران وأرمينيا، وتنسيق بين طهران وبين مجلس الأمن القومي في يريفان، كما يتحدّثون عن اتفاقيات مبرمة بين البلدين في الملفين الاستخباراتي والأمني.

وترى الاستخبارات الإيرانية، أنّ موقع أرمينيا الجغرافي يعد إستراتيجياً ويمنحها ميزة في مجال جمع المعلومات لمواجهة التواجد الإسرائيلي في تلك المنطقة، وقد تعمّقت العلاقات بين البلدين إبان الضغوط، التي تسببت بها العقوبات الاقتصادية على طهران، وشهدت المزيد من التقارب منذ عام ٢٠٠٨. وطبقاً لتقارير عدّة، فإن وزارة الاستخبارات الإيرانية، كانت قد طلبت من نظيرتها في يريفان السماح لوحدة إيرانية بالتواجد في أرمينيا، وأفادت أن الهدف الإيراني كان وقتها التمكن من جمع معلومات استخباراتية عن نشاط قوات "الناو"، والوحدات الإسرائيلية المتواجدة في أذربيجان وجورجيا، وفهم طبيعة التكنولوجيا الإسرائيلية، التي تُزوّد بها الجيش والأجهزة الأمنية الجورجية. وتحدّث مراقبون في الأعوام الماضية، عن وجود وحدات تابعة للاستخبارات الإيرانية، تستخدم أجهزة تعقب إلكترونية في المنطقة الواقعة على الحدود الصغيرة بين إيران وأرمينيا، كما تعمل من داخل الأراضي الأرمينية بالقرب من الحدود مع تركيا غرباً، وجورجيا شمالاً، وأذربيجان شرقاً، من أجل تحديد طبيعة التواجد الإسرائيلي في المنطقة.

لقد تركّز الصراع الإيراني الإسرائيلي في ساحتي أذربيجان وأرمينيا على المجال الاستخباراتي، مع سعي كل طرف منهما لكسب ساحات جديدة لجمع المعلومات، في محاولة لامتلاك موطئ قدم في الشرق الأوسط

وآسيا وجنوب أوروبا، فيما يرجّح مراقبون أن التعاون الاستخباراتي بين إيران وأرمينيا، أحرز نجاحاً، ولكن من غير المعروف ما إذا كان قد تسبّب في قيود على الأنشطة الإسرائيلية، التي تتم من داخل أذربيجان.

من جهةٍ أخرى رأت السلطات في البلد الأوراسي الناشئ أن العلاقات مع "إسرائيل" ستكون ذات مردود إيجابي بالنسبة إليها على صعيدين رئيسيين: الإفادة من القدرات التكنولوجية الإسرائيلية في مجالات متعدّدة، وخصوصاً الزراعة والأسلحة، والرهان على تجنيد اللوبي اليهودي الأميركي في مواجهة اللوبي الأرمني الشديد التأثير في واشنطن لمصلحة القضية الأذرية القومية الأولى، وهي الصراع من أجل استعادة إقليم ناغورنو قره باغ، وهو جيب جبلي غربي يشكل نحو ١٦ في المئة من مساحة أذربيجان السوفياتية، أعلن استقلاله عام ١٩٩٢ وبقي تحت السيطرة الأرمينية برغم حروب طاحنة خيضت على مدى عامين لاستعادته من دون نتيجة. وفي تلك الحروب، دعمت إيران الميليشيات الأرمينية في الإقليم المنشقّ، ما أسّس لتقاطع مصالح بين باكو وتل أبيب حول العداء ل طهران، كل لأسبابه الخاصة.

قبل فترة، نقلت صحيفة "هآرتس"، في تقرير أعدّته من باكو، عن فؤاد أحمندوف، مستشار الرئيس الأذربيجاني إلهام علييف، قوله أنه بالنسبة إلى حكومة بلاده فإن "إيران هي المشكلة وليست إسرائيل"، مشيراً إلى أن طهران "لا تحب تعاوننا الجيد مع إسرائيل". وإذ لفت أحمندوف إلى وجود "عدد كبير من الإسرائيليين من أصل آذري، ومن السهل لنا جداً أن نعمل معهم"، كشفت الصحيفة عن أن حكومة باكو لا تزال تتعامل مع اليهود الآذريين الذين هاجروا إلى "إسرائيل"، والذين أكمل معظمهم طريقه باتجاه الولايات المتحدة، على أنهم مواطنون مغتربون لا يزالون يتمتّعون بكامل حقوقهم المدنية والسياسية. وفي حين تشير "هآرتس" إلى استعداد أذربيجان للتضحية بعلاقتها مع طهران في سبيل تمتينها مع تل أبيب، تنقل عبارات واضحة بهذا المعنى عن عضو لجنة الشؤون الدولية في البرلمان الآذري، أسيم مولارزادا، الذي يرى أن "هناك الكثير من الأصدقاء اليهود لأذربيجانيين وهم يساعدوننا في الولايات المتحدة"، مضيفاً "تحديداً أذربيجان المسلمة هي مؤيِّدة لإسرائيل وأرمينيا المسيحية هي مؤيِّدة لإيران".

ووفقاً لـ "هآرتس" أيضاً، توجد ثمة علاقات متعدّدة المجالات بين "إسرائيل" وأذربيجان، بدأ الشعب الآذري يسمع عن بعضها أخيراً. وفضلاً عن أن "باكو هي الباب الخلفي ل طهران، فإن هناك المجال النفطي الذي لا

يقول أهمية". وأشارت الصحيفة إلى أن إيران كانت حتى ما قبل انتصار الثورة الإسلامية فيها عام ١٩٧٩، المزود الأساسي لـ "إسرائيل" بالنفط. ومع سقوط الشاه، أصبحت تل أبيب من دون مصدر نفط أساسي في المنطقة، ما اضطرّها إلى استيراده من أماكن بعيدة، مثل المكسيك التي كانت على مدى نحو ثلاثة عقود مزودها الأكبر بالنفط الذي سبّب شحنه عبر المحيط الأطلسي والبحر المتوسط ارتفاع اسعاره. وتنامي العلاقات بين تل أبيب وباكو جعل الأخيرة تتحول إلى المزود الكبرى للكيان بالنفط، حيث إن أكثر من ٤٠ في المئة من الاستهلاك النفطي الإسرائيلي مصدره الدولة القوقازية التي تتمتع باحتياطات مهمّة في بحر قزوين. وبحسب "هآرتس"، فإن هناك بعداً استراتيجياً آخر للعلاقة النفطية بين تل أبيب وباكو: فالنفط الآذري يمر عبر أنبوب BTC (باكو _ تبليسي _ تشيهان) من جورجيا إلى السواحل التركية شمال شرق المتوسط، حيث يجري شحنه عبر البحر من هناك إلى "إسرائيل". وعلى هذا الأساس، فإن انتقال النفط عبر تركيا وموانئها يدخل أموالاً مهمّة إلى الخزينة التركية، ما يعني أن هناك أساساً جوهرياً لمواصلة التعاون التجاري المثمر بين "إسرائيل" وتركيا، برغم الأزمات الدبلوماسية بينهما.

في السياق نفسه، يؤكّد مراد حيدرروف، المسؤول الرفيع المستوى في شركة النفط الوطنية الآذرية SOCAR، أن المباحثات الهادئة تجددت أخيراً بشأن مدّ خط أنابيب تحت مائي بين تشيهان وميناء أشدود الإسرائيلي، مشيراً إلى أن هذا المشروع كان قد جُمّد بسبب حادثة مرمرة. وعلى ذكر الحادثة، يؤكّد دبلوماسيون إسرائيليون لـ "هآرتس" أنّه "برغم القرابة اللصيقة بين آذربيجان وتركيا اللتين تعدّان شبه توأمين، فإن التوتر بين إسرائيل وتركيا لم يمسّ بالحلف بين تل أبيب وباكو". وتشير الصحيفة نقلاً عن مسؤولين رفيعي المستوى في العاصمة الآذرية إلى محاولات تبذلها باكو منذ فترة طويلة لجسر الخلاف بين الإسرائيلي والتركي. وقال أحد الدبلوماسيين الآذريين لـ "هآرتس": "لقد تحدثت في ذلك مع (وزير الخارجية الإسرائيلي)، في حينه، أفيدور ليبرمان. فمن المؤسف أنه لا يزال يفكر بعقلية الإمبراطورية العثمانية والاتحاد السوفياتي، ولا يفهم الواقع الجديد. لكن بما أنه الآن ليس وزيراً للخارجية، فإن هناك أملاً بجل الخلاف بين أنقرة وتل أبيب".

٥ - العقدة الإيرانية في العلاقة بين باكو وتل أبيب:

تتشارك إيران وأذربيجان في حدود مباشرة يزيد طولها على ٧٦٠ كيلومتراً، إضافةً إلى إطلالهما على بحر قزوين الذي يعتبر مخزناً غنياً بالنفط والغاز. ويجمع البلدين كذلك روابط ثقافية وعرقية ودينية حيث ينتمي ما يقرب من ثلث الإيرانيين إلى العرق الأذري، وهم الفئة التي تتحدث الفارسية والتركية الأذرية في الوقت نفسه، ويدين ٩٣ بالمئة من الأذريين البالغ عددهم ٩,٥ مليون نسمة بالإسلام، ويعتق غالبيتهم المذهب الشيعي الاثني عشري، ويتبعون مراجع دينية في قم أو مدينة تبريز التي تعتبر مركز إقليم أذربيجان الإيراني. لكن عوامل التقارب والإلتقاء بين البلدين لم تمنع من ظهور خلافات عميقة ومعقدة على الصعيد السياسية والاقتصادية والثقافية؛ مما أوجد أزمة في العلاقة تتصاعد حدتها أو تهدأ تبعاً للعديد من المؤثرات المعقدة، حيث ترى كل من إيران وأذربيجان في الأخرى عمقاً استراتيجياً يُشكّل مصدراً للقلق والخطر المحتمل. ومنذ تفكك الاتحاد السوفيتي واستقلال أذربيجان تخشى السلطات الإيرانية من صعود أصوات انفصالية في الإقليم الأذري في شمال البلاد وتخشى من تأثير باكو على ولاء مواطنيها الأذريين الذين يزيد عددهم عن ١٧ مليون نسمة، لما يمكن أن تشكله أذربيجان من دولة جاذبة لهم. وتعتبر إيران علمانية وقومية النظام الأذري منافساً ومهدداً لأيدولوجيتها الإسلامية فيما يتعلق بتأثيرها على الأذريين. ويمثل الأذريون كتلة تصويتية لها وزنها، مما سيجعل لأية تغييرات ثقافية انعكاساتها المؤثرة على شرعية النظام في إيران على المدى البعيد.

في المقابل تخشى أذربيجان من نظام ولاية الفقيه في إيران الذي يسعى لكسب ولاء سكان أذربيجان الشيعة الذين يشكلون الأغلبية بالإضافة إلى الأقلية المتحدثين بالفارسية. وتشكّل المراجع الدينية أداة إيران للتغيير الناعم في أذربيجان، حيث إن الأذريين الشيعة يختارون في الغالب مراجع تقليد دينية إيرانية. وتخشى باكو من علاقات المراجع الإيرانيين ذوي النفوذ في أذربيجان بالنظام الإيراني وما يمكن أن يحدثه ذلك من "تسييس" للخطاب الديني على حدّ زعمها. كما تخشى باكو من تأثير الإعلام الإيراني الموجه باللغة الأذرية. وفي ظل وجود نظام علماني قمعي تخشى باكو أيضاً من دعم إيراني لجماعات شيعية مسلحة في أراضيها. ولخشية طهران من النظام الأذري بسبب تحالفات باكو الإقليمية المعادية لها وشكوكها في محاولة باكو منازعتها ولاء مواطنيها الأذريين، سعت إيران إلى دعم أرمينيا بشكل غير مباشر (اقتصادياً) في صراعها مع أذربيجان المعروف بنزاع نجورنو-قرباغ الذي بدأ في ١٩٨٨ حيث احتلت أرمينيا ما يقرب من ٢٠% من

الأراضي الأذربية بحلول ١٩٩٢ لتتحول المنطقة إلى جمهورية نجورنو-قرباغ المستقلة (جزء من أرمينيا)، وتوصل الطرفان لاتفاق لوقف إطلاق النار في ١٩٩٤.

تستخدم إيران هذا النزاع لأداء دور الوسيط بين أذربيجان وأرمينيا بغية تقديم ذاتها كلاعب إقليمي في المنطقة لتحقيق مكاسب تمكّنها من كسر الحصار الغربي عليها وتوسيع نفوذها. وفي ١٩٩٢ رعت إيران مفاوضات بين الرئيسين الأذري والأرمني لتسوية النزاع عُرفت بـ"إعلان طهران". يُضاف إلى ما سبق مساعي إيران على المستوى الإقليمي، إذ تخشى طهران من أن يؤدي توسّع الصراع الأذري-الأرمني إلى تدخّل غربي يهدّد أمنها القومي من ناحية حدودها الشمالية. ففي عام ٢٠٠٧ أعلنت الدول الراعية لمؤتمر مبادئ مدريد Madrid Principles عن ضرورة نشر قوات دولية لحفظ السلام في المنطقة المتنازع عليها، ورأت إيران في وجود قوات لدول (مثل الولايات المتحدة والدول الأوروبية) لا تنتمي للمحيط الإقليمي ضمن قوات حفظ السلام تهديداً لنفوذها وأمنها في منطقة القوقاز، وعضواً عن ذلك اقترحت في عام ٢٠٠٨ مبادرة ٣+٣ (جورجيا-أرمينيا-أذربيجان-إيران-روسيا-تركيا) لحل الأزمة.

في مقابل الدعم الروسي (اقتصادياً وعسكرياً) والإيراني (بنك الحصار الأذري-التركي اقتصادياً) لأرمينيا ضد أذربيجان في نزاع نجورنو-قرباغ؛ سعت باكو إلى تحسين علاقاتها بالولايات المتحدة و"إسرائيل" لتعزيز موقفها ولتحويل ميزان القوة لصالحها؛ وهو ما أدى إلى المزيد من التوتر في العلاقات بين طهران وباكو.

بعض المراقبين يرون إن ما ترغب فيه طهران هو استمرار النزاع على أن يبقى بمستوى يمكن التحكم فيه واحتواؤه، بحيث يُمكنها من لعب دور وسيط وفي ذات الوقت لا يهدّد أمنها القومي والإقليمي. ومن جهةٍ أخرى فإن تسوية النزاع بين باكو ويريفان يعني المزيد من الاندماج الأرميني مع الدول الغربية والابتعاد النسبي عن مدار موسكو-طهران. أما بالنسبة لقلق طهران من علاقات باكو القوية مع واشنطن فإن الأمر يعود إلى أسباب عدّة، أهمها: ١- محاولة الولايات المتحدة تضيق مساحات الاستثمار الإيراني في قطاع الطاقة الأذري. ٢- خشية إيران من استخدام القواعد العسكرية الأذرية لشنّ هجومٍ على منشآتها النووية واستخدامها في عمليات استخباراتية.

على صعيد آخر تتخرب إيران في قطاع الطاقة الأذري، الذي هو قطاع استراتيجي بالنسبة لأمن أوروبا الطاقوي، حيث تستحوذ الشركة الإيرانية الوطنية للنفط NIOC على ١٠ بالمائة من كونسورتيوم حقل الشاه دنيز الأذري الذي ينطلق منه خط غاز جنوب القوقاز BTE الذي من المخطط أن يُغذي خط الغاز العابر للبحر الأدرياتيكي Trans-Adriatic عبر خط الغاز العابر للأناضول Trans-Anatolian اللذين من المخطط أن يغذيا أوروبا. ونظراً للأهمية الاستراتيجية لحقل الشاه دنيز فقد طلب الاتحاد الأوروبي من الإدارة الأميركية إعفاء نشاط NIOC حصرياً في المشروع من العقوبات المفروضة على إيران. وفي شهر حزيران من العام الماضي أعفت الإدارة الأميركية نشاط الشركة في حقل الشاه دنيز من حزمة جديدة من العقوبات على إيران. وبالإضافة إلى مشروع حقل الشاه دنيز تملك NIOC نسبة عشرة بالمائة من أسهم الشركة التي تدير خط غاز جنوب القوقاز BTE، على الرغم من عدم مرور الخط عبر أراضيها كما كانت تأمل.

رسمياً، رحّبت باكو بفوز الرئيس حسن روحاني في الانتخابات الرئاسية الإيرانية الأخيرة، حيث أكدت الخارجية الأذرية أن هناك روابط ثقافية وتاريخية، كما عبّرت عن أملها في تطوير العلاقات الثنائية. بالنسبة لباكو يعدّ صعود مرشح ذي خطاب "معتدل" مكسباً لها بعد فترة حكم الرئيس أحمد نجاد والخطاب الراديكالي الذي اعتمدته الإدارة الإيرانية أثناء فترة حكمه، لكن على الرغم من ذلك يظلّ رصيد الخلافات حاضراً، ففي ٢٣ تموز ٢٠٠١ وقع تبادل لإطلاق نار بين قارب حربي إيراني وعدد من السفن الأذرية، ممّا أدى إلى توتر في العلاقات. وقبل الحادثة زار الرئيس روحاني (وكان الأمين العام للمجلس الأعلى للأمن القومي) باكو، وعقد مؤتمر تحدّث فيه الرئيس السابق حيدر علفيف والرئيس روحاني عن ضرورة تطوير العلاقات الثنائية بين البلدين، لكن المناخ كان مختلفاً في الجلسة المغلقة بين الطرفين التي سلّم روحاني فيها رسالة من المرشد الأعلى سماحة السيد علي خامنئي إلى الرئيس حيدر علفيف يشترط فيها ثلاثة شروط لتعزيز العلاقات الثنائية بين البلدين:

١- إغلاق السفارة الإسرائيلية في باكو.

٢- التوقّف عن استكشاف احتياطات الطاقة في المناطق المتنازع عليها في بحر قزوين.

٣- عدم اتخاذ قرار بمد خط أنبوب نفطي لأوروبا قبل لقاء الدول المُطلة على بحر قزوين الذي كان مزعم عقده في عام ٢٠٠٢ لحل إشكالية الوضع القانوني لبحر قزوين حيث ترغب إيران في التوصل إلى صيغة قانونية تسمح بتقسيم الاحتياطيات الموجودة في البحر من النفط والغاز بشكلٍ متساوٍ بين الدول المُطلة.

الرئيس روحاني يعتقد بأن العلاقات الإيرانية-الأذرية تقوم على "الصداقة والثقة المتبادلة"، كما عرض إمكانية اداء إيران دوراً في حل نزاع نجورنو قرباغ مؤكداً على وحدة الأراضي الأذرية، فيما توقع السفير الإيراني بأذربيجان محسن باك آيين أن العلاقات في عهد الرئيس روحاني ستكون جيدة جداً. لكن لا يزال الخط الأحمر الإيراني إزاء العدو الصهيوني حاضراً، حيث حذر قائد القوات البحرية الإيرانية حبيب الله سياري مطلع أيلول من العام الماضي من الآثار السلبية لشراء باكو صواريخ بحرية إسرائيلية على الأمن الإقليمي. أما فيما يخص احتمالات تقارب مستقبلي بين البلدين، فيمكن القول نظرياً، بوجود دوافع استراتيجية تجعل التقارب بين باكو وطهران ممكناً في حدود معينة (في ظل الضغوط الاقتصادية على طهران) إلا أنه من الصعب التنبؤ بإمكانية حدوث تقارب محتمل بين الدولتين يصل إلى حدّ الشراكة الاستراتيجية. ومع الفرص التي يوفرها صعود روحاني ووجود بوادر انفراج في علاقة إيران مع الغرب يظلّ ارتباط باكو السياسي بتل أبيب وواشنطن وعمق التعاون بينهم خاصة على المستوى العسكري عائقاً أمام ظهور تطور نوعي في العلاقات الثنائية مع طهران. وهناك حالة من الارتباك في سياسات كل دولة تجاه الأخرى يسببها التناقض الكامن بين مصادر التوتر التقليدية والتاريخية التي تثار من حين لآخر والحاجات الاقتصادية والاستراتيجية المتنامية للطرفين التي تدفعهم للتقارب، لذا من المرجح أن تسود حالة من التذبذب المستمر في العلاقة بين الدولتين تتحدّد مؤشراتته على أساس إعادة كل طرف حساباته الإقليمية بشكلٍ مستمر. وعملياً، من الصعب تقييم العلاقات بين طهران وباكو بشكلٍ دقيقٍ بسبب تداخل المؤشرات السياسية والاقتصادية والأمنية في ظلّ تعقّد المشهد الإقليمي والعالمي، ففي التسعينيات من القرن الماضي كانت إيران في مقدّمة الشركاء التجاريين لأذربيجان، وفي ٢٠٠٧ بلغ حجم التبادل التجاري ٥٤٠ مليون دولار. أما في ٢٠١١ فقد انخفض حجم التبادل التجاري إلى ٣٠٥ مليون دولار، وفي ٢٠١١ كانت إيران الشريك التجاري الـ١٩ لباكو لينخفض مركزها

لشريك الـ٢٣ بينما أذربيجان من أوائل شركاء إيران التجاريين. وفيما أشار السفير الإيراني في باكو إلى أنه حسب الإحصاءات الرسمية تجاوز متوسط حجم التبادل التجاري بين الطرفين في الأعوام الماضية الـ٥٠٠ مليون دولار، فإنها في الواقع تبلغ المليار دولار. وفي العام الماضي بلغت صادرات إيران غير النفطية إلى باكو في الربع الأول من بداية السنة الإيرانية (٢١ آذار) ١٤١ مليون دولار لتشهد الصادرات الإيرانية زيادة ٥ بالمائة في القيمة مقارنة بصادرات الفترة نفسها في العام الأسبق.

٦ - "إسرائيل" وتحديات القوقاز:

لا يتوقف الكيان الصهيوني، ولا تغمض له عين عن أي منطقة قد تساهم في أن تكون فاعلة في معاركه ضد العرب والمسلمين، أيًا كانت هذه المناطق بعيدة أو نائية، وأيًا كان الحجم المتوقع منها، ما يعني ألاّ نسمح له بأن يتغلغل فيها وألاّ نترك له الباب مفتوحاً ليدخل حيثما شاء، بل علينا أن نسبقه ونعزز علاقاتنا، ونحصن وجودنا وروابطنا مع دول القوقاز، وهي إسلامية لتساهم معنا في معركتنا ضد الكيان الصهيوني الغاصب المحتل. كذلك لا يعني نجاح دخول الإسرائيليين إلى دول منطقة القوقاز ومن أبرزها أذربيجان، أنها حققت أهدافها، وتمكنت من تحقيق ما تصبو إليه، وأنها لم تعد تواجه صعوباتٍ تذكر، أو أن أحداً لا يعترض على وجودها، أو على أي من برامجها الخاصة أو المشتركة في هذه الدول، بل إن الكيان الصهيوني يعاني من مشاكل هناك، ويخشى من تحديات، ويعيش مواطنوه وخبرائه حالة خوف وترقب من أعمال عدائية موجّهة ضدهم، وما يواجهه الإسرائيليون في المنطقة من تحديات يتلخّص في ما يلي:

أ- لقد باتت الثورات العربية وأبعادها الجديدة، وتطوّراتها المختلفة، ومآلاتها المجهولة، تقلق الكيان الصهيوني، الذي يخشى من انتقال العدوى لدول القوقاز، لكون أكثرها دولاً إسلامية، تعيش الحالة نفسها من سيطرة أنظمة ديكتاتورية وحكام مستبدين موالين له.

ب- انفضاح وانكشاف دور الكيان الغاصب بعد الحرب الجورجية الروسية، حيث ظهر بأنّه أدى دوراً رئيساً في إدارة المعركة، وفي تزويد الجورجيين بمختلف أنواع الأسلحة، وأنه كان على أرض المعركة أكثر من

ألف ضابط إسرائيلي، شاركوا بالفعل في إدارة وتوجيه العمليات العسكرية، ما لفت أنظار القوى الإقليمية المتضررة وأبرزها روسيا إلى قوة وكثافة هذا الحضور والعمل على محاصرته وتحجيمه.

ج- تغير المزاج السياسي والأمني التركي بعد التوتر الذي شاب العلاقات الصهيونية التركية، خصوصاً أن تركيا لها مصالح تاريخية واستراتيجية في المنطقة.

د- تسعى إيران لمحاولة صدّ التوغّل الصهيوني في المنطقة، لما يشكّله من خطورة على أمنها القومي. فهي تجاوز دول المنطقة، ما يجعل من أهدافها قريبة من القواعد الإسرائيلية في بعض هذه الدول، ما يجعل عين إيران مفتوحة على أي نشاط إسرائيلي في أي دولة مجاورة لها، خاصة أن الخبراء العسكريين الإسرائيليين يعتمدون على قواعدهم في هذه الدول، فضلاً عن المطارات الوطنية العسكرية، لاستخدامها في حال توجيه أي ضربة عسكرية ضد أهداف إيرانية.

هـ- بداية ظهور ملامح تراجع الدور الأمريكي في المنطقة، وإعادة بروز القوة الروسية، إذ بعد التراجع الذي تعانیه أمريكا، فإنّ هذا قد يشكّل تحدياً لاستمرار الدعم المقدم لدولة الكيان الصهيوني في المنطقة، خاصة أن روسيا تسعى من جديد لإعادة بسط نفوذها على تلك الدول، وتأمين أمنها القومي عبر منع تواجد أي قوة مؤثرة في تلك المنطقة، إضافة لسعيها للعودة كقوة عالمية، وإن كانت مظاهر تناقضها مع الكيان الصهيوني غير كبيرة.

و- تنامي الشخصية الأرمنية المستقلة وذلك بالتعاون مع روسيا وإيران وتركيا، وذلك خلافاً لدول المنطقة. فقد انتابت العلاقات الأرمنية الصهيونية حالة من الفتور، نظراً للتحالف الأرمني الروسي الذي يمنع أي تواجد قوي لدولة الكيان في تلك الدولة، بالإضافة للعلاقات الوطيدة بين تركيا - ذات العلاقات التاريخية المتوترة مع الأرمن - والكيان الصهيوني، حيث أن دولة الكيان لم تعترف حتى الآن بالمجازر العثمانية ضد الأرمن، إلا أنه وبعد تقلص وتوتر العلاقات بين تركيا ودولة الكيان الصهيوني بعد مواقف حكومة حزب العدالة والتنمية بقيادة رجب أردوغان المهمة بالقضية الفلسطينية وذات التوجّه نحو العمق العربي والإسلامي. وتسعى دولة الكيان في الآونة الأخيرة لإعادة صياغة تحالفاتها بما يضمن محاصرة ومواجهة التوجهات

التركية الجديدة، بتعزيز العلاقة مع الدول ذات الخلافات مع تركيا ومنها أرمينيا واليونان. كما تسعى لكي تجعل من هذه الدول قاعدة انطلاقٍ قوية لها في مواجهة إيران، فعلياً أو صورياً لجهة إرهابها وتخويفها، بأنها أصبحت وسطاً وجنوباً تحت مرمى الصواريخ الإسرائيلية، وأمام أنظار طائراتها الحربية القتالية.

٧ - روسيا في المعادلة الاستراتيجية:

خلال السنوات الأخيرة سعت تل أبيب لتطوير علاقاتها مع أذربيجان في مختلف الميادين، الأمر الذي أثار قلق روسيا التي تنتظر لهذه العلاقات على أنها تمثل تهديداً لأمنها القومي على المدى البعيد لعلها بأن "إسرائيل" لا يمكن أن تتغلغل في منطقة ما دون أن تبتّ سمومها وتنتشر عملاتها عبر شبكات التجسس التي توجد في إطار مساعيها الرامية إلى تكريس نفوذها وتحقيق مصالحها على كافة الأصعدة الأمنية والسياسية والتجارية. ومن الطبيعي القول بأن موسكو تنتظر بحذرٍ شديدٍ لمحاولات تل أبيب بيع أسلحة ومعدات عسكرية للدول المحاذية لروسيا ومن بينها أذربيجان وأرمينيا خصوصاً في ظلّ التوتر الذي تشهده المنطقة منذ سنوات بسبب الأزمة في أوكرانيا والنزاع في قره باغ. وقد قام الكيان الصهيوني بتوقيع صفقات سلاح مع أذربيجان، وعقد اتفاقيات بشأن مشروع مشترك لصنع طائرات من دون طيار، والتزوّد بوسائل اتصال، وتطوير بعض الأسلحة، وتدريب طيارين في سلاح الجو الآذري. كما عمل الكيان الإسرائيلي خصوصاً والحركة الصهيونية العالمية على وجه العموم لتكريس وجودهم في القوقاز وآسيا الوسطى من خلال دعم الجاليات اليهودية. وأحد أبرز وجوه هذا الدعم هو الدعم الثقافي والترويج للأفكار التي تتماشى مع أهداف هذا الكيان السياسية والاقتصادية والأمنية في هذه المنطقة.

هذه المعطيات وغيرها تشير إلى أن تل أبيب بصدد توسيع نفوذها في القوقاز وآسيا الوسطى، الأمر الذي يتطلب من روسيا وإيران تعزيز تحالفهما الاستراتيجي في شتى الميادين، لأن التغلغل الإسرائيلي خصوصاً الأمني في المنطقة سيخلق الكثير من المشاكل، وهذا يُعدّ بحذّ ذاته هدفاً استراتيجياً لكيان الاحتلال

لاعتقاده بأن التحالف الروسي - الإيراني ومحور المقاومة هو الذي تمكّن من هزيمة الجماعات الإرهابية المرتبطة بهذا الكيان وفي مقدمتها "داعش" في سوريا والعراق وعموم المنطقة.

كما تعتقد تل أبيب بأن تحالف (موسكو - طهران - المقاومة) من شأنه أن يمهد الأرضية لتعزيز موقف سوريا الراض لوجود الكيان الصهيوني والساعي لاستعادة الأراضي المحتلة خصوصاً هضبة الجولان التي استولى عليها هذا الكيان عام ١٩٦٧.

أخيراً تنبغي الإشارة إلى أن رئيس الوزراء الإسرائيلي "بنيامين نتنياهو" يراوده ومنذ زمن طويل حلم السيطرة على مقدرات بعض دول آسيا الوسطى التي تمثل بالنسبة لتل أبيب حلقة وصل لمهاجمة إيران كونها تشكل هاجساً حقيقياً لكيان الاحتلال، وتهدّد مستقبله وتعرض وجوده غير المشروع للخطر. وهو ما أكّده مقال نشرته "جيروزاليم بوست" أنه "لا توجد دولة في الفضاء الأوراسي لديها علاقات ودية ووثيقة مع إسرائيل مثل جمهورية أذربيجان". كاتب المقال هو خبير العلاقات الدولية الإسرائيلي الشهير آرييه غوت وكان الكاتب نفسه والمؤرخ الإسرائيلي إميل أبراموف قد كتبا، في ١١ تشرين الثاني عام ٢٠١٤، في صحيفة "هآرتس" الإسرائيلية مقالاً بعنوان "أذربيجان - هي بلد بالغ الأهمية لإسرائيل". ولا غرابة في ذلك، فالنخبة السياسية الإسرائيلية معروفة بدفاعها الحميم عن أذربيجان. وقد بيّنت الوثائق، التي نشرتها "ويكيليكس"، حجم التماهي بين باكو وتل أبيب، وتباعد أذربيجان عن العالمين العربي والإسلامي.

وجاء في رسالة سرية أرسلها الدبلوماسي الأمريكي روب غارفيليك في كانون الثاني ٢٠٠٩ إلى خارجية بلاده أن أذربيجان مثل "إسرائيل" ترى في إيران التهديد الأكبر لأمنها بل لوجودها. ورأى الدبلوماسي الأمريكي أن "إسرائيل" بصناعتها العسكرية المتفوّقة والمتطلبات السياسية الميسّرة من زبائنها تعد توأماً مثالياً لأذربيجان. وأن أذربيجان تتمكّن من الحصول من "إسرائيل" على أنواع حديثة من الأسلحة، وعلى تقنيات لا تستطيع الحصول عليها من الولايات المتحدة وروسيا، أو من أوروبا بسبب القيود القانونية المختلفة، أو من الجمهوريات السوفياتية السابقة مثل بيلاروس وأوكرانيا.

ويضيف الدبلوماسي الأمريكي: "هناك حيث تخشى دول الغرب بيع أذربيجان منظومات عسكرية متطورة خوفاً من شنها حرباً لاسترجاع أراضي قره باغ، تعقد تل أبيب بحرية صفقات أسلحة مع باكو، وتنال أرباحها من الزبون الغني". ومن جانبها، تراهن باكو على تجنيد اللوبي اليهودي-الأميركي لمواجهة اللوبي الأرمني الشديد التأثير في واشنطن.

ويقول إيليا بيرتمان من "مركز بيغن-السادات الإسرائيلي للدراسات الإستراتيجية" أن اللوبي اليهودي في واشنطن يقف بالمرصاد للوبي الأرمني، ولسياسته الرامية إلى الحدّ من المساعدات الأميركية إلى باكو. وربما لذلك، يحرص الرئيس الأذربيجاني إلهام علييف دوماً خلال زيارته إلى الولايات المتحدة على لقاء المنظمات الأميركية اليهودية. وكان آخرها قبل أيام في ٣٠ آذار العام الماضي مع "لجنة الشؤون العامة الأميركية-الإسرائيلية" (أيباك)، و"التحالف الوطني الأوراسي لدعم اليهود"، ورؤساء المنظمات اليهودية الأميركية الكبرى في واشنطن (وفق "آذر-تاس").

ومن جانب "إسرائيل"، فمن الضروري لها الحفاظ على أذربيجان حليفاً على الحدود مع غريمته إيران، وسوقاً ورأس جسر لأنشطتها الاستخبارية، ولا سيما أن الاستخبارات الإسرائيلية في أذربيجان تشعر بنفسها كأنها في بيتها، كما قال دبلوماسي إسرائيلي سابق لموقع «IZRU» الإسرائيلي الروسي في عام ٢٠٠٩.

٨- ثمار المعادلات الجيوستراتيجية:

كما أن تل أبيب تؤيد باكو في نزاع إقليم قره باغ انطلاقاً من مصالحها في الشرق الأوسط. فهي ترى أن الحل العسكري للنزاع على قره باغ سيؤدي حتماً إلى اهتزاز موقع موسكو في جنوب القوقاز، وسيخلق لها مشكلات كبيرة في حديقته الخلفية، ما يمكن أن يكون ذريعة لمطالبة موسكو بالحدّ من دورها في الأزمة في سورية. لكن باكو من ناحية أخرى، توازن علاقات الصداقة مع "إسرائيل" بصورتها في الدول العربية والإسلامية. وهي حريصة بجميع الوسائل على عدم إثارة غضب إيران. إذ رغم مرور ٢٥ عاماً على افتتاح سفارة إسرائيلية عام ١٩٩٣ في باكو، فإن الأخيرة لا تجرؤ على افتتاح سفارة لها في تل أبيب، لأن طهران

تقف لها بالمرصاد، مهدّدة بتضييق الخناق على منطقة ناخيتشيفان المنعزلة، التي تفصلها عن الأراضي الأذربيجانية من الشمال أرمينيا وتحدها من الجنوب إيران. وبالمقابل فإنّ الشعوب العربية بصورة عامّة تقف إلى جانب أرمينيا، التي تحافظ على علاقات وثيقة مع الدول العربية، ربما بفضل الجاليات الأرمينية فيها. بيد أن لتركيا (الشقيق الأكبر) لأذربيجان موقف آخر. فرغم أنها لم تتدخل عسكرياً في النزاع، الذي استمرّ بوتائر متقطّعة منذ عام ١٩٨٨ إلى عام ١٩٩٤، فقد وقفت الآن ومن دون مواربة إلى جانب أذربيجان (الشقيق الأصغر) في النزاع. وتسعى لتحويله إلى نزاع طائفي. غير أنه، وبفضل رجال الدين في أرمينيا وأذربيجان وروسيا، لم يحالفها النجاح رغم وجود قوى ذات مصلحة في ذلك، وفق المدير التنفيذي لمركز المجمع الشعبي الروسي العالمي رومان سيلانتييف. ولعل تركيا بزلوعها في تأجيج النزاع، تريد الثأر لتجسيمها على الساحة السورية، ولا سيما أن الوضع توتر في منطقة نزاع قرّة باغ بعد توافد الوفود التركية في الأشهر الأخيرة على باكو. "بل إن أردوغان كان ينوي المجيء إلى أذربيجان لولا العمليات الإرهابية المتوالية في المدن التركية"، كما يقول مدير مركز دراسة بلدان الشرق الأوسط وآسيا الوسطى سيميون بغداساروف. فهل يريد "السلطان الأكبر" تحقيق أحلامه الوردية بفتح معركة جديدة، لمصلحة إسرائيل وأذربيجان في جنوب القوقاز، الذي كان ساحة قتال دائمة بين الدولة العثمانية وإيران والإمبراطورية الروسية؟

على المستوى الاستراتيجي، يأتي تعزيز علاقات تل أبيب مع باكو في سياق مخطّطٍ يهدف إلى تطويق إيران باعتبارها مصدر التهديد الاستراتيجي على الأمن القومي الإسرائيلي، كما يُعرّفها المستويان السياسي والعسكري في تل أبيب.

بالإضافة إلى ذلك، يأتي هذا التطور كامتدادٍ لإستراتيجيةٍ مشابهةٍ اعتمدها "إسرائيل" في العقود الأولى من تاريخها، وأنداك، نسجت تل أبيب علاقات ذات طابع استراتيجيٍّ مع الدول الإقليمية غير العربية التي تحيط بما كان يُطلق عليها دول الطوق المُعادية لها، وذلك بهدف تطويقها وإشغالها بجبهاتٍ خفيّة.

وكانت إثيوبيا وتركيا وإيران، في عهد الشاه، أبرز ثلاث دول تحالفت معها إسرائيل في مواجهة كلّ من مصر الناصريّة وسوريّة والعراق، علماً أنّ تركيا كانت أوّل دولةٍ إسلاميّةٍ تعترف بإسرائيل في الأمم المتحدة.

وبعد تغيّر المعادلات، وتبلور بيئة إقليمية مغايرة، لم تتخلَّ "إسرائيل" عن نظريتها. بل تحاول إعادة تطبيقها، لكن لمواجهة إيران ومحور المقاومة، توجد عدّة مسارات من ضمنها الدفع باتجاه نسج علاقات مع دول الاعتدال العربيّ، أو كما يُسميها قادة تل أبيب الدول السنيّة المعتدلة، على قاعدة المصالح المشتركة والتهديدات المشتركة، وهو ما عبّر عنه نتنياهو في أكثر من مناسبة، آخرها قبل يومين في مقابلة مع وسائل إعلام أمريكيّة، عندما أكّد أنّه حتى لو لم تُعلن جبهة موحّدة مع السعودية في مواجهة طهران، فإنّ هذه الجبهة قائمة في كلّ الأحوال، كما قال.

أمّا المسار الثاني، فإنّه يجري عبر تعزيز العلاقات مع أذربيجان التي تحدّ إيران من الشمال، وترى تل أبيب أنّها توفر لها مزايا ومنافع إستراتيجيّة، وهو ما دفع العديد من الخبراء والدبلوماسيين الإسرائيليين في مناسبات سابقة إلى وصف أذربيجان بأنّها شريك إستراتيجيّ، علاوةً على كونها "باباً خلفياً" لإيران، هذا بالإضافة إلى أنّها تُعتبر مزوّد النفط الرئيسي لإسرائيل، من خلال أنبوب يمرّ عبر جورجيا وتركيا.

وقال نتنياهو إنّ هذين البلدين الإسلاميين، كازاخستان وأذربيجان، يرغبان بشدّة في تعزيز العلاقات مع "إسرائيل". وأضاف إن "هذا هو جزء من سياسة واضحة في التواصل، وعلاقات إسرائيل آخذة بالازدهار بصورةٍ غير مسبوقّة"، بحسب تعبيره.

من ناحيةٍ أخرى، أكّد المُحلّل الأمني في صحيفة "معاريف" يوسي ميلمان، على ما وصفها بالعلاقة الغرامية بين "إسرائيل" وحليفاتها في بلاد القوقاز أذربيجان، في ظلّ التعاون الأمني الاستخباري بينهما بجانب عمليات تصدير السلاح بمبالغ ماليّة كبيرة. وأشار إلى أنّ العلاقات الوثيقة بين "إسرائيل" وأذربيجان بدأت فور إعلان الأخيرة استقلالها عقب تفكّك الاتحاد السوفيتي السابق عام ١٩٩١، وهذه العلاقات في طريقها للتطور والتنامي خاصة أنّ الرئيس الأذري إلهام علييف يرى في "إسرائيل" حليفة إستراتيجية.

وخلص ميلمان إلى القول بان هذا التحالف يزداد قوة على خلفية اندلاع الصراع المتجدّد بين أذربيجان وجارتها أرمينيا للسيطرة على إقليم ناغورنو كراباخ المتنازع عليه بينهما، حيث يستخدم جيش أذربيجان في هذه المعارك أسلحة ووسائل قتاليّة إسرائيليّة.

من ناحيةٍ أخرى حدّر المرشد الأعلى في إيران، سماحة آية الله العظمى السيد علي خامنئي، من الخطط الإسرائيلية للإيقاع بين إيران وأذربيجان، مشيراً للمحاولات التي يقوم بها النظام الإسرائيلي لتقويض العلاقات الثنائية بين البلدين. لكن الخبير الروسي إيغور بانكراتنكو يرى أن أمام باكو عدّة عقبات في طريق تحقيق الهيمنة الإقليمية الصهيونية، مثل: روسيا، وإيران، والوضع في ناغورنو كرباخ، وموقف الولايات المتحدة الفاتر من أيّة محاولة لحل عسكري للنزاع على ناغورنو كرباخ. وبحسب قوله، تتطابق مصالح باكو في الحدّ من هذه العوامل مع مصالح "إسرائيل" تماماً. لذلك فإنّ "إسرائيل" ترى أنّ الحل العسكري للنزاع على ناغورنو كرباخ سيؤدّي حتماً إلى تفاقم الوضع الروسي في المنطقة، لأنه سيخلق مشكلات كبيرة في جوار حدودها. وبالتالي، فإن ذلك سيُضعف اهتمام موسكو بشؤون الشرق الأوسط. إضافةً إلى ذلك، يمكن أن يكون خطر نشوب نزاع في ناغورنو كرباخ بمثابة ذريعة إضافية لمطالبة موسكو بالحدّ من تعاونها مع إيران. ولهذا الهدف أزلت "إسرائيل" عملياً كل العقبات أمام أذربيجان للحصول على التسليح الإسرائيلي، وهو ما لا تستطيع باكو أن تحصل عليه لا من الولايات المتحدة ولا من أوروبا بسبب القيود القانونية، ولا من الموردين السوفيت السابقين، مثل: أوكرانيا أو روسيا البيضاء. ولكي تدعم "إسرائيل" طموحات أذربيجان لتولّي الزعامة في المنطقة، فهي لا تكلّف من استخدام قدرات الضغط لديها في الولايات المتحدة. وفي هذا المجال يقول المحلّل آرييه غوت: "يقدم ممثلو الجالية اليهودية المساعدة اللائقة لإطلاع الأسرة الدولية على حقيقة الأمور في أذربيجان، كما يساعدون في تطوير العلاقات الدولية مع أذربيجان".

ويقول إيليا بيرتمن من مركز بيغين-السادات الإسرائيلي للدراسات الإستراتيجية: "إن اللوبي اليهودي في واشنطن يعمل في الواقع على إبطال سياسة اللوبي الأرمني المناوئة لأذربيجان والتي ترمي إلى الحدّ من المساعدات الأميركية إلى باكو". ويضيف بيرتمن: "ونتيجة لنشاط اللوبي اليهودي في أميركا، ألغت وزارة الخارجية الحظر على مبيعات الأسلحة إلى أذربيجان المعمول به منذ عام ١٩٩٣، كما خصّصت الحكومة الأميركية في منتصف العقد الأول من القرن الحالي منحة قدرها ٤,٤ مليون دولار لشراء معدات عسكرية".

المحلّل الروسي إيغور بانكراتنكو يقول: "إنه لهذه الأسباب مجتمعةً تحرص "إسرائيل" على التقرب من النخبة الحاكمة في أذربيجان: أحدثت الأسلحة، وقوة اللوبي اليهودي في أميركا، ودعم المسعى الأذربيجاني

للهيمنة الإقليمية في مقابل الكفاح المشترك ضد "الخطر الإيراني". فبفضل المدفعية الصاروخية الإسرائيلية، والأسلحة الصغيرة، ومدافع الهاون، وأنظمة الاتصالات، والطائرات بلا طيار، يستطيع الجيش الأذربيجاني أن يزيد من قدراته على مواجهة أي صراع محتمل مع أرمينيا وقوة إيران المتصاعدة. وقد بدأت أذربيجان فعلاً باستخدام كل هذه الترسانة التي في متناول يدها، ففي أواخر عام ٢٠١٢، ذكرت قناة الصحافة التلفزيونية الإيرانية أن أذربيجان تستخدم طائرات إسرائيلية خفيفة للغاية بلا طيار مثل أوروبتر وهيرمس ٤٥٠ لحراسة الحدود مع إيران وناغورنو كرباخ. ونقلت القناة عن خبراء إيرانيين قولهم: "إن هذه الطائرات بلا طيار يمكن ربطها بأقمار الاستخبارات الإسرائيلية". إضافة إلى ذلك، ذكرت صحيفة صنداي تايمز البريطانية في كانون الأول ٢٠١٢ أن إسرائيل تنوي استخدام طائرات بلا طيار من طراز إيتان متمركزة في أذربيجان لاعتراض الصواريخ الإيرانية المنطلقة على "إسرائيل".

إن العلاقات الدبلوماسية والاستراتيجية بين "إسرائيل" وأذربيجان تحمل دلالات ورسائل سياسية كبيرة ليس للجمهورية الإسلامية الإيرانية فحسب، وإنما للعالم العربي والإسلامي أجمع، حيث يعكس تطورها في الشكل والجوهر الاستراتيجية الصهيونية الجديدة التي تسعى لتحقيق الأهداف التالية:

١. جعل عملية (السلام) مع المحيط الخارجي غير مرهونة بنجاح (السلام) مع الفلسطينيين.
٢. جعل (إسرائيل) دولة طبيعية بالمنطقة تربطها علاقات وطيدة مع دول عربية وإسلامية، وقد تصوّت لها دول إسلامية كانت أم مسيحية في المحافل الدولية، وبذلك يمكنها التمتع بشرعية دولية طبيعية مثلها مثل باقي الدول.
٣. التركيز على الأمن أولاً وأخيراً، حيث تولي دولة الاحتلال اهتماماً كبيراً بالأمن الاستراتيجي الذي يحمي وجودها ومصالحها الحيوية في المنطقة.

هنا لا بدّ من معرفة أن آخر الإحصائيات تشير إلى أن ثلث سكان إيران من الأذربيين، ويبلغ عددهم ما يقارب العشرين مليون نسمة، يتحدثون بلغة مشتركة مع سكان أذربيجان وهي اللغة التركية، وترتبطهم تقاليد وعادات وثقافات مشتركة وتفصل بينهما الحدود. ومن هنا يأتي دعم إيران لأرمينيا على حساب أذربيجان حتى

تبقى الأخيرة في حالة استنزاف دائم، لأنه في حال امتلكت أذربيجان القوة فإنها تستطيع تحريك ورقة الأذريين في إيران وتطالب بضمهم إلى الدولة الأذربيجانية، وينحدر بعض زعماء المعارضة الإيرانية إلى أصول أذرية ومن أبرزهم مير حسين موسوي. وهنا تأتي العقلية الصهيونية التي تلعب دائماً على المتناقضات وتستثمرها لمصالحها القومية، وفعلاً بدأت "إسرائيل" تقوية نفوذها في أذربيجان، حتى استطاعت أن تمتلك مطارات عسكرية وعلاقات ثنائية واقتصادية، وينسجم الفكر الاستراتيجي الصهيوني مع ذلك كون أذربيجان تشكّل خاصرة ضعيفة لإيران بحكم الجغرافيا والتاريخ، ومن هنا نقرأ أهمية الزيارات المتكررة لقادة صهاينة لأذربيجان آخرها كانت زيارة رئيس الحكومة نتانيا هو للعاصمة باكو، حيث تريد "إسرائيل" في وقت واحد توصيل ثلاث رسائل:

الرسالة الأولى: إلى الشعب الأذري وحكومته بأن (إسرائيل) جاهزة لدعمه في كل المجالات، وأن أربعة وعشرين عاماً من العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ستجني أذربيجان ثمارها قريباً.

الرسالة الثانية: موجّهة إلى إيران، بأن توجيه ضربة إسرائيلية للمنشآت النووية الإيرانية قد ينطلق من أذربيجان، وأن (إسرائيل) لها اليد الطولى في منطقة القوقاز.

الرسالة الثالثة: موجّهة إلى الدول العربية والاسلامية، ومفادها أن (إسرائيل) تدعو تلك الدول لإقامة علاقات طبيعية معها، والتأكيد على المصالح المشتركة التي ستعود على شعوب تلك البلدان، مع التلويح بحجم القدرات التي من الممكن أن تقدّمها (إسرائيل) في مجالات التكنولوجيا والزراعة والأمن (مكافحة الإرهاب والتسلح).

يسعى كيان الاحتلال للبحث عن طرق جديدة لإنهاء العزلة الدولية التي يشهدها بسبب عدم الاعتراف به رسمياً من شعوب ووجهات عربية وإسلامية عديدة خاصة إزاء ما يرتكبه من جرائم بحق الشعب الفلسطيني وباقي شعوب الشرق الأوسط وما يتسبب به من زعزعة الأمن والاستقرار في المنطقة. ومن هذه الطرق محاولة إقامة وتطبيع العلاقات مع العديد من الدول ومن بينها جمهورية أذربيجان بهدف تحقيق مكاسب سياسية واقتصادية وعسكرية وأمنية ومعنوية. فبعد انهيار الاتحاد السوفييتي السابق في مطلع تسعينيات القرن الماضي سارعت «إسرائيل» لمدّ جسورٍ مع العواصم التي استقلّت عن موسكو ومن بينها باكو بهدف التغلغل في منطقتي القوقاز وآسيا الوسطى.

ومن العوامل التي جذبت كيان الاحتلال لإقامة علاقات مع أذربيجان هي النسبة العالية للسكان المسلمين في هذا البلد، حيث تسعى تل أبيب للتأثير على مجريات الأحداث هناك بهدف حرف أذهان الرأي العام العالمي عن الجرائم البشعة التي يرتكبها هذا الكيان ضد الشعب الفلسطيني والإيحاء بأنه لا يُعادي المسلمين، وذلك من أجل تحقيق مكاسب سياسية واقتصادية ومعنوية، فضلاً عن هدفه الرئيسي المتمثل بمحاربة الجمهورية الإسلامية في إيران الداعم الأساسي لمحور المقاومة الذي يتصدّى للمشروع الصهيوني في عموم المنطقة. وبما أن جمهورية أذربيجان هي من الدول المجاورة لإيران وترتبطها معها أواصر تاريخية وثقافية ودينية سعت تل أبيب لتوظيف إمكاناتها لاختراق المنظومات السياسية والاقتصادية والعسكرية والأمنية لهذا البلد، مستفيدةً من الظروف التي تحكمه وتحكم عموم منطقتي القوقاز وآسيا الوسطى في شتى المجالات. ومن العوامل الأخرى التي جذبت «إسرائيل» لتقوية علاقاتها مع أذربيجان الموارد الطبيعية الغنية التي يتمتع بها هذا البلد لاسيما في مجال الطاقة، حيث تسعى تل أبيب لسدّ احتياجاتها من النفط والغاز عن هذا الطريق. ويعتبر المخزون الهائل من النفط والغاز والفحم واليورانيوم والذهب والفضة وباقي المعادن الإستراتيجية، أكثر ما يميّز آسيا الوسطى والقوقاز، ويسبب في تدافع قوى العالم عليها، وصراعهم على النفوذ فيها، بمن فيهم الكيان الصهيوني، إذ أن كازاخستان تمتلك ربع احتياط العالم من اليورانيوم، وتمتلك تركمنستان رابع احتياطي للغاز الطبيعي في العالم، وتعد أوزبكستان ثالث أكبر منتج للقطن في العالم، وتمتلك رابع أكبر احتياطي عالمي من الذهب، وعاشر احتياطي عالمي من النحاس، إضافة للكميات الضخمة من النفط والغاز في بحر

قزوين. ولعل الغاز والنفط والمعادن المشعة، هي أكثر ما يسيل لعاب الإسرائيليين، ويحركهم بقوة تجاه هذه المنطقة، ويدفعهم للتفكير في كيفية اختراقها والتأثير عليها، والاستفادة منها، وحرمان الآخرين من فرصة الحصول عليها، ومن أسواقها المفتوحة، وقدرتها غير المحدودة على الاستيعاب. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن الكيان الإسرائيلي يبذل كل ما لديه من إمكانيات للحيلولة دون تعزيز العلاقات بين إيران وروسيا وأذربيجان في شتى المجالات خصوصاً في مجال الطاقة لعلمه بأن ذلك سيضعف نفوذ إيران ويعزز قوتها في غرب آسيا والقوقاز وآسيا الوسطى، الأمر الذي تخشاه تل أبيب التي تسعى لزعزعة أمن إيران وإشغالها بمشاكل جانبية لتشتيت قواها عن نصره الشعب الفلسطيني ودعمه لاستعادة حقوقه المشروعة في الأرض والوطن والدفاع عن المقدّسات وفي مقدّمها القدس الشريف.